كلية دار العلوم

قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن


# نثر أبي حيان التوحيدي

## دراسـة نقديـة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في النقد الأدبي


إعداد

الباحث/ محمد حسن محمد السيد

إشراف

الأستاذ الدكتور/ عبد الحميد هنداوي

والأستاذ الدكتور/ محمد محمد عليوة مشرفا مشاركا



١٤٣٧هـ - ٢٠١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الحديث عن حياة التوحيدي ونشأته ليس هدفا لذاته، وإنما الهدف هو رصد أهم المؤثرات التي أثرت في أدب الكاتب وجعلته منتجا للأدب؛ فإن لسيرة الكاتب **"أهمية كبيرة في دراسة النص الأدبي وعاملا رئيسيا في التحليل الأكثر عمقا، فمن دون شك إن تفكير الكاتب يتأثر إلى حد بعيد بالمحيط الذي تربطه به صلة مباشرة، تأثرا متعدد الوجوه قد يأخذ شكل تكيّف، أو شكل رد فعل رافض، وقد يتحول إلى تركيب للأفكار المستقاة من المحيط"**[١]

الحديث عن حياة التوحيدي هنا ليس إلا محاولة لوضع صورته في الإطار الذي عاش فيه، لفهم حيثيات إبداعه وتجلية نصوصه، ولا يعدو هذا الحديث أن يكون: " **مرحلة أولية لأجل الوصول إلى السياق من خلال عمليات مقاربة متعددة الأبعاد، تربط مختلف المستويات، حتى الأسلوبية والبلاغية منها، سواء بالنسبة إلى منتج النص، أو متلقيه، وكذا العوامل الإطارية "الاجتماعية- الثقافية- السياسية.. " المشتتة وغير المتجانسة، التي تقوم بدور بارز في السياقات الإدراكية وصولا إلى تأسيس فهم خاص للمرجعية المتحكمة في النص، التي تتشكل إحداثياتها الأساسية من محددات الثقافة ومكوناتها"**[٢]

والناظر إلى سيرة التوحيدي وما نقله المؤرخون عن حياته يجد فقرا شديدا في المصادر والمعلومات؛ لذلك كان المصدر الأول لسيرته، والحديث عنه هو أدبه ذاته، فالرجل أشار بعض الإشارات إلى حياته، وفي بعض الأحيان يمكن أن تستشف من نصوصه إشارات خفية يمكنها أن تكون مرشدا في فهم حياته، وأثره على إنتاجه الأدبي.

وقد قسمت هذا التمهيد إلى أربعة أقسام؛ في القسم الأول تحدثت عن سيرة التوحيدي، وكيف أثرت نشأته في تكوينه العلمي، ثم بعد ذلك في إنتاجه الأدبي. وفي القسم الثاني تحدثت عن أهم العوامل التي أثرت في أدب التوحيدي، كالعوامل (السياسية، والاجتماعية، والثقافية). ثم انتقلت إلى القسم الثالث، وفيه تحدثت عن شخصية التوحيدي، ونفسيته، والعوامل التي أثرت في بناء شخصيته، وكذلك مدى ظهور تلك

---

[١] أدبية النص السردي عن أبي حيان التوحيدي- د. حسن إبراهيم الأحمد -دار تكوين -٢٠٠٩- ١٣
[٢] السابق ١٤

الشخصية في الأدب. وختمت بالحديث عن رؤية التوحيدي للمجتمع من حوله؛ من خلال نظرته لطبقات المجتمع الذي عاش فيه.

## أولا: السيرة:

### ميلاده ووفاته:

إن البحث حول حياة أبي حيان التوحيدي تحفه الكثير من الصعوبات؛ فالرجل لم يؤرَّخ له بالدرجة التي يستحقها، فكل شيء حول حياته مختلف فيه ومستنبط في الغالب من كلامه -القليل- الذي تحدث فيه عن نفسه. ففي الحديث عن مولده اختلاف شديد، ولم ينقل أحد من القدماء فيه تاريخا محددا؛ لكن حاول بعض الباحثين تحديد ميلاده ببداية العقد الثاني من القرن الرابع أي في أعوام (٣١٠ أو ٣١١أو ٣١٢)[١]. واستنبط الباحثون هذه التواريخ من بعض الأحداث التي ذكرها التوحيدي في كتبه مؤرخة، وأشار فيها إلى عمره. أما وفاته فقد شابها ما شاب ميلاده من التخبط في التاريخ، لكن المؤكد أنه عاش لما بعد عام أربعمائة ويرى بعضهم أنه عاش إلى عام ٤١٤ هـ[٢].

### نشأته:

والتوحيدي لم يعرف له مكان ولادة، فقيل شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، وقيل واسطي فليس هناك من تأكيد على المكان الذي ولد فيه تحديدا حتى لدى من أرخ له من العلماء[٣]. والسبب في هذا يرجع إلى ضبابية حياة الرجل قبل ظهوره، وعدم حديثه عن أصله في كتبه. ويرجع أيضا السبب إلى قلة المعلومات التي ذكرها المؤرخون عنه، فكما يقول ياقوت الحموي: **" ولم أر أحدا ذكره في كتاب، ولا ضمن في خطاب، وهذا من العجب العجاب"**[٤] فالرجل تجاهله المؤرخون الذين أرخوا تلك الفترة وهم كثر. ولقد أشار ياقوت في النص السابق إلى أن هذا التجاهل من الأمور العجيبة التي لا يُعرف لها سبب.

---

[١] يراجع في هذه التواريخ كتاب "أبو حيان التوحيدي" د. زكريا إبراهيم، ومقدمة المقابسات ت. حسن السندوبي.
[٢] أبو حيان التوحيدي – إبراهيم الكيلاني – سلسلة نوابع الفكر العربي – دار المعارف – ١٩٧٥ -٣٤
[٣] معجم الأدباء – ياقوت الحموي – ت. إحسان عباس- دار الغرب الإسلامي – ج٥ -١٩٢٣، وينظر أيضا طبقات الشافعية للسبكي الجزء الخامس ٢٨٦
[٤] معجم الأدباء ١٩٢٤

بل إن مسألة الطعن في دينه -كما سيأتي ذكرها- ليست سببا في حقيقة الأمر؛ لأن المؤرخين أرخوا لكثير ممن طعن في عقيدتهم غير التوحيدي. ولعل من الأمور التي أسهمت في هذا حرقه لكتبه في آخر حياته فلم يترك للناس ما يجعلهم يهتمون به ويعنون بسيرته على النحو الصحيح والكامل. لكن يتعجب من هذا التجاهل الشديد للرجل رغم علمه الواسع وأدبه الراقي الذي اعترف به كثيرون ممن جاءوا بعده- حتى اعتبره ياقوت الحموي: **"شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء"**[١].

وتلك الجهالة التي أدركت ميلاده ومحلته، أدركت كذلك أسرته، فلا يعرف أي شيء عنها، أو عن ظروفها المعيشية وأحوالها. وكذلك لا يعرف شيء مفصل على وجه الدقة عن كيفية طلبه العلم وتحصيله إياه. ولذلك يرجح كثير من المؤرخين أنه نشأ نشأة بسيطة لأسرة فقيرة، أو كما يشير الدكتور زكي مبارك **" لا تسأل متى ولد، ولا أين ولد، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة، لم تكن تطمع في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد"**[٢] انطلق هو من تلك البيئة طالبا للعلم والمكانة؛ وهذا يفسر حرصه على الوجود مع الأمراء وكبار الدولة كما سيأتي بيانه بعد.

## شيوخه:

كان التوحيدي مثالا لطالب العلم الحريص على الطلب، ومثالا للباحث المجد المجتهد. وكانت كتبه وما حوت من علوم ونقول خير دليل على أخذه من العلوم بحظ وافر، وعلى تنقله الدائم بين العلماء والأخذ عنهم. وقد أشار التوحيدي إلى شيوخه في كتبه، ونقل عنهم في مواضع كثيرة ما يدل على ملازمته لكثير منهم، وحفظه عنهم. ولم يتوقف الأمر عند النقل فقد تحدث في بعض كتبه بالتفصيل عن هؤلاء الشيوخ وحاول أن يقدم صورة عما كان عليه هؤلاء من العلم وكذلك الأخطاء التي وقعوا فيها. مما يدل على أنه كان شخصية ناقدة لا تكتفي بالنقل، والتقديس للناقل أو المنقول. ويظهر نقده لشيوخه أنه لم يكن ملتزما مذهبا معينا أو طريقا بعينه، وأنه كان يحب التنويع في المعارف وفيمن

[١] السابق ١٩٢٤
[٢] النثر الفني في القرن الرابع الهجري- د. زكي مبارك- مكتبة لبنان ناشرون- ٢٠١٠-٣٤٣

يأخذ عنهم. لذا لم يكن صورة ممسوخة لأحدهم، ومن هنا كان تفرده الذي جعل له فلسفته الخاصة، وتفكيره المميز حتى كان نسيج وحده في فنه وأدبه.

**ومن هؤلاء الشيوخ:**

١- **أبو سليمان المنطقي** (ت ٣٨٠هـ) أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني. وقد نقل عنه التوحيدي في كثير من المواضع بكتبه. ولقد وصفه في بعض المواضع فقال: "**أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرا، وأقعرهم غوصا، وأصفاهم فكرا، وأظفرهم بالدرر وأوقفهم على الغرر، مع تقطع في العبارة، ولكنة ناشئة من العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من الكنز**"[١]. ويصفه في موضع آخر فيقول: " **إن شيخنا أبا سليمان غزير البحر، واسع الصدر، لا يغلق عليه في الأمور الروحانية، والأنباء الإلهية، والأسرار الغيبية؛ وهو طويل الفكرة، كثير الوحدة، وقد أوتي مزاجا حسن الاعتدال، وخاطرا بعيد المنال، ولسانا فسيح المجال**"[٢].

٢- **أبو سعيد السيرافي** (٢٨٤هـ-٣٦٨هـ) وأبو سعيد من كبار علماء عصره، فقد كان إماما من أئمة النحو في عصره، وله فيه مؤلفات هي عمد في بابها، وقد نقل لنا مناظرته المشهورة مع متى بن يونس القنائي، وكما يظهر من نقل التوحيدي، واستشهاده بهذه المناظرة تأييده لأبي سعيد وموافقته رأيه فيما ذهب إليه، وقد وصف التوحيدي أبا سعيد بقوله: " **أبا سعيد كان أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج من كل طريق، وألزم للجادة الوسطى في الدين والخلق، وأروى في الحديث وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، وأحضر بركة على المختلفة، وأظهر أثرا في المقتبسة**"[٣].

---

[١] الإمتاع والمؤانسة- أبو حيان التوحيدي- ت: أحمد أمين، أحمد الزين- دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر -د.ت-٣٣

[٢] السابق ج٢ ٢٣

[٣] الإمتاع والمؤانسة ج١ ١٢٩

٣- **أبو زكريا يحيى بن عدي** (ت٣٦٤) كان فيلسوفا نصرانيا جلس إليه التوحيدي ونقل عنه أيضا، وينقل التوحيدي أن يحيى بن عدي كان أستاذا لشيخه أبي سليمان المنطقي: " **قال الوزير: ما عجبي من جميع هذا الكلام إلا من أبي سليمان في هذا الاستحقار والتغضب والاحتشاد، والتعصب، وهو رجل يعرف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى بن عدي النصراني. ويقرأ عليه كتب يونان، وتفسير دقائق كتبهم بغاية البيان**"[١]. ووصف التوحيدي يحيى بن عدي في كتبه فقال:" **وأما يحيى بن عدي، فإنه كان شيخا لين العريكة، فروقة، مشوه الترجمة رديء العبارة، لكنه كان متأنيا في تخريج المختلفة، وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة ولم يكن يلوذ بالإلهيات كان ينبهر فيها، ويضل في بساطها، ويستعجم عليه ما جل، وفضلا عما دق منها، وكان مبارك المجلس**"[٢]. وتكلم عن رأيه في بعض العلوم حيث إنه لم يكن" **يعتبر النحو والشعر واللغة من قبيل العلوم، بل كان يقول إن هذه كلها أدخل في باب التمويه والمغالطة، منها في باب العلم والمنطق، فهي قشور من الحكمة وليس لها إلا ظل يسير من البرهان المنطقي والرمز الإلهي، والإقناع الفلسفي**".

٤- **علي بن عيسى الرماني** (٢٧٦هـ - ٣٨٤هـ) وصفه التوحيدي في كتابه" **تقريظ الجاحظ**" الذي نقله عنه ياقوت: " **ومنهم علي بن عيسى الرماني، فإنه لم يرى مثله قط بلا تقية ولا تحاش ولا اشمئزاز ولا استيحاش، علما بالنحو، وغزارة في الكلام، وبصرا بالمقالات، واستخراجا للعويص، وإيضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة، وفقاهة، وعفافة، ونظافة**"[٣] ووصفه في موضع آخر فقال: "**... وأما علي بن عيسى فعالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق، وعيب به، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق، بل أفرد صناعة، وأظهر براعة، وقد عمل في القرآن كتابا نفيسا، هذا مع الدين الثخين، والعقل الرزين**"[٤].

---
[١] السابق ج٢ ١٨
[٢] السابق ج١ ٣٧
[٣] معجم الأدباء ج٤ ١٨٢٧
[٤] الإمتاع والمؤانسة ج١ ١٣٣

٥- **أبو حامد أحمد بن بشر المروروذي** وهو من الذين أخذ التوحيدي عنهم الفقه، ولقد أكثر النقل عنه في كثير من المواضع؛ ففي كتاب "**البصائر والذخائر**" فقط هناك أكثر من أربعين موضعا نقلها عن الرجل، وقد وصفه التوحيدي فقال:" **إنما أولع بذكر ما يقوله هذا الرجل؛ لأنه أنبل من شاهدته في عمري، وكان بحراً يتدفق حفظاً للسير، وقياماً بالأخبار، واستنباطا للمعاني، وثباتاً على الجدل، وصبراً في الخصام**"[١] ووصف التوحيدي للمروروذي يختلف عن وصفه سائر شيوخه الذين لم يسلم أي منهم من نقده. ويلاحظ أن التوحيدي وصف هذا الرجل بصفات كان دائم الشكوى من افتقادها؛ لذلك فهو يعد من تعبيرات المدح النادرة التي ترصد في معجمه، لأن الرجل لا ينفك عن النقد لكل من عرفهم، فمديحه لشخص ما يدل على تأثره الشديد به وإعجابه بشخصه وعقله.

## مؤلفاته:

ترك التوحيدي كثيرا من المؤلفات التي تعبر عن سعة علمه، وسعة اطلاعه، وقد عد له ياقوت الحموي ثمانية عشر كتابا، لكن بعض هذه الكتب لم يصل إلينا، وكما هو معروف فقد أحرق التوحيدي كتبه في آخر حياته، وما وصل إلينا يعتقد أنه خرج من عنده قبل أن يهم بإحراقه. والكتب التي وصلتنا هي على النحو الآتي:

١- **البصائر والذخائر**: وهو موسوعة كبيرة جمع فيها التوحيدي ألوانا شتى من المعارف، نقلها عمن سبقوه، وجمعها من كتبهم. والكتاب يدل دلالة واضحة على سعة علمه وسعة اطلاعه، يقول في مقدمة الكتاب:" **ثبت – أطال الله بقاءك- الرأي بعد المحض والاستخارة، وصح العزم بعد التنقيح والاستشارة، على نقل جميع ما في ديوان السماع ورسم ما أحاطت به الرواية، واشتملت عليه الدراية من عام خمسين وثلاثمائة، مع توخي قصار ذلك دون طويله وسمينه دون**

[١] البصائر والذخائر – أبو حيان التوحيدي- ت: د. وداد القاضي-دار صادر بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م- ج٢ ١١

**غثه...**"[1] وقد جمع التوحيدي الكتاب من مجموعة كبيرة من كتب الأدب أشار إليها في مقدمة كتابه، من كتب الجاحظ، والكامل للمبرد، وعيون الأخبار لابن قتيبة وغيرها [2].

٢- **الإمتاع والمؤانسة:** جمع التوحيدي في كتابه تلك الحوارات التي دارت بينه وبين أبي عبد الله العارض وزير صمصام الدولة. ولقد وصف القفطي الكتاب بأنه:" **وهو كتاب ممتع عَلَى الحقيقة لمن لَهُ مشاركة فِي فنون العلم فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجة. وَمَا أحسن مَا رأيته عَلَى ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو ابتداء أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً وختمه سائلاً ملحفاً**"[3].

٣- **المقابسات:** قسم التوحيدي هذا الكتاب إلى ١٠٦ مقابسة تختلف طولا وقصرا، وتبحث كل واحدة في موضوع مستقل، تدور بعضها في موضوعات فلسفية وبعضها يدور حول النفس وقضاياها.

٤- **الصداقة والصديق:** وكما يظهر من عنوان الكتاب فقد جمع التوحيدي في هذا الكتاب أقوالا تتعلق بالصداقة وعلاقة الصديق بصديقه، وهذه الأقوال جمعها من كلام العرب في الإسلام والجاهلية، ومن كلام اليونان والفرس وغيرهم.

٥- **الهوامل والشوامل:** جمع فيه التوحيدي أسئلة دارت بينه وبين أستاذه مسكويه، كان التوحيدي هو السائل فيها ومسكويه المجيب. وقد جمع الكتاب أسئلة في موضوعات شتى تركزت أغلبها على النفس، وأحوالها، وكثير من القضايا التي كانت تشغل بال التوحيدي في الحياة.

---

[1] السابق ٢

[2] السابق ٣،٤،٥.

[3] إخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدين القفطي، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م- ج١ ٢١٤

٦- **مثالب الوزيرين "أخلاق الوزيرين"**: تحدث التوحيدي في هذا الكتاب عن الوزيرين الصاحب ابن عباد، وأبي الفتح ابن العميد، وقد جمع في كتابه مثالب الرجلين. ولقد بلغ الكتاب في السخرية من الوزيرين مبلغا عظيما.

٧- **الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية:** والكتاب كما يظهر من اسمه هو كتاب صوفي، وضع فيه التوحيدي تجربته الروحية، والصوفية.

**رسائله:**

بالإضافة إلى الكتب الطوال التي سردتها فقد كتب التوحيدي مجموعة من الرسائل الصغيرة مثل:

١- **رسالة الكتابة**: وقد وضع فيها التوحيدي خلاصة خبرته في الوراقة، فتحدث فيها عن الكتابة، وأنواع الخطوط والأقلام، وغيرها من الموضوعات المتعلقة بمهنة الوراقة.

٢- **رسالة الحياة**: وهي بحث فلسفي في الحياة والموت، تكلم فيها التوحيدي حول أصناف الحياة.

٣- **رسالة السقيفة**: وهي رسالة قد وضعها التوحيدي، وجعل لها سندا، يتحدث فيها عن الحديث الذي دار بين الصحابة في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم-.

٤- **رسالة العلوم**: ألفها التوحيدي ردا على من قال ليس للمنطق مدخل في الفقه، ولا للفلسفة اتصال بالدين.

وهناك مؤلفات للتوحيدي لم تصل إلينا أشار إليها ياقوت في معجم الأدباء، ونقل منها بضع فقرات مثل: **" الرد على ابن جني في شرح شعر المتنبي"** و **" تقريظ الجاحظ"**... وغيرها من الكتب التي إن دلت على شيء فإنها تدل على سعة اطلاع الرجل وغزارة علمه.

## ثانيا: الظروف المحيطة:

### أ- الإطار السياسي لعصره

مع بدايات القرن الرابع الهجري كان الصراع السياسي على أشده في دولة الإسلام، وقد انتقلت الدولة الإسلامية في تلك المرحلة أو قبلها بقليل من مرحلة الاستقرار والتوحد إلى الانقسام الشديد الذي كان أهم أسباب ضعفها في مراحل تالية مما أدى إلى سقوط أجزاء منها في يد الصليبين ثم من بعدهم التتار[١].

وبداية من عام ٣٢٤هـ - ٩٣٥م بدأت الدولة الإسلامية في التفتت إلى دويلات صغيرة تدين بالطاعة الشكلية للخليفة العباسي وإن كانت في حقيقة الأمر مستقلة تماما عنه، وصارت هذه الدويلات الصغيرة تحت طاعة أسر مختلفة فنجد "فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، وكرمان في يد محمد بن إياس، والموصل وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طغنج، والمغرب وإفريقية في يد الفاطميين، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر، وخراسان في يد نصر بن أحمد، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريديين، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها"[٢]

وقد أصبح الخليفة العباسي في تلك الفترة ألعوبة في يد وزراءه وقادة الجيش، فأصبح تغيير الخليفة وقتله في كثير من الأحيان أمرا عاديا يحدث بصورة كبيرة؛ فقد قتل الجيش الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٢٠ هـ بعد خلعه وإعادته للحكم، وحكم عبد الله بن المعتز الملقب بالمرتضى يوما واحد ثم عزل، ثم جاء من بعده أبو منصور القاهر بالله وانتهى به الأمر محبوسا من سنة ٣٢٢هـ وحتى ٣٣٣ هـ لأنه رفض خلع نفسه، والمتقي لله إبراهيم بن جعفر المقتدر الذي سملت عيناه وحبس خمس وعشرون سنة. وهذا التلاعب

[١] انظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري- آدم متز – ت: محمد عبد الهادي أبو ريدة- المركز القومي للترجمة- الفصل الأول
[٢] السابق ١٠

في المنصب الذي كان يشير إلى توحد الأمة أدى إلى وجود اضطراب شديد في الحياة السياسية.

اتسمت تلك الفترة بقلة النفوذ العربي مع ازدياد النفوذ التركي، والفارسي، وإذا نظرنا إلى الدويلات التي قامت في أرجاء العالم الإسلامي سنجد أن كثيرا ممن حكموها من الأمراء كانوا من غير الأصول العربية. كذلك فإن قادة الجيش الذين كانت لهم الكلمة العليا كانوا أيضا من الأتراك أو الفرس؛ وقد أدى هذا إلى نشوء صراع ثقافي في المجتمع العربي كان نتيجة لهذا الصراع السياسي، وكذلك نشأ صراع آخر عقائدي نتج عن الصراع السياسي، فبني بويه كانوا من الشيعة وقد كانت لهم سيطرة كبيرة على الدولة الإسلامية في تلك الفترة، وكذلك القرامطة الذين كانت لهم عقيدتهم، والفاطميون في بلاد المغرب ومن بعد في مصر والحجاز والشام، وقد كانوا أيضا من الشيعة. وقد نشأ نتيجة عن هذا الاختلاف العقدي صراعات شديدة بين هؤلاء الأمراء أدت إلى حروب وصراعات.

وبسبب هذا الانقسام والضعف والصراع الذي أصيبت به الدولة الإسلامية طمع فيها أعداؤها وبدأ هؤلاء الأعداء في التحرش بها، فقد بدأ الروم في الاعتداء على حدود الشام ومحاولة العودة إلى بعض الأرض التي فقدوها على يد الدولة الإسلامية في مجدها، ولكن الحمدانيين في الشام كان لهم الفضل في صد تلك الهجمات، وتأخير دخول الروم إلى بلاد المسلمين كما سيحدث فيما بعد على يد الصليبيين. وقد نتج عن هذه الصراعات والانقسامات الداخلية أيضا توقف الفتوحات الإسلامية، وأصبح هم الأمراء هو حماية حدود مدنهم التي سيطروا عليها أو التوسع على حساب أمير آخر دون أن يطمح إلى التوسع على أرض غير إسلامية. وكذلك عدم استقرار الخلفاء وعدم استطاعة الخليفة ضمان سلامة نفسه أو حريته أدى إلى عدم خروج الخليفة للغزو أو تسيير الجيوش كما كان يحدث فيما مضى. ويمكن أن نرى أثر ذلك الصراع في بعض مؤلفات التوحيدي؛ مثل حديثه حول تفضيل العرب على غيرهم من الأمم، وكذلك حديثه عن اللغات ومميزاتها، وما يميز العربية عن غيرها[١].

---

١ انظر الإمتاع والمؤانسة ٧٠ وما بعدها

ب-**الإطار الثقافي والفكري**:

بالرغم من الاضطراب السياسي الذي عم القرن الرابع الهجري لكن الحياة الثقافية والفكرية ازدهرت بصورة كبيرة، فمن المعروف في " **تتبع الحركات العلمية والأدبية أنها لا تتمشى مع العصور السياسية، مشي التلازم المحض، فتطفر مع السياسة، وتهبط بهبوطها؛ لأن السياسة حركة قد تجيء مفاجئة ـ وقد تجيء على مهل وتدبير. أما الحركة العلمية فلابد لها من تمهيد طويل، ولابد لانقطاعها من مدة زمنية تطول أو تقصر**"[١]

وقد كان لازدهار الثقافة في تلك الفترة عوامل عديدة يمكن ترتيبها على النحو الآتي:

١- **تعدد المراكز الثقافية**:

فكما أشرت من قبل فقد انقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة أصبحت تتمتع بشبه استقلال ذاتي، وأصبحت تبعيتها للخلافة العباسية تبعية شكلية فقط، مثل الدعاء للخليفة، وإرسال بعض المال إليه؛ لكن السلطة الحقيقية كانت في يد أمراء تلك الدويلات. ومع وجود صراع سياسي بين هؤلاء الأمراء حدث صراع ثقافي، فأراد كل أمير منهم أن يجمع حوله طائفة من العلماء تكون دعما له، وللإمارة التي يتولاها. وعند النظر في كتابات القرن الرابع يلاحظ أن كثيرا منها كان في صورة إهداء إلى أحد الأمراء، فقد سعى العلماء إلى مجالسهم وسارعوا في التأليف لهم. والتوحيدي- بما أنه موضوع البحث- أدل مثال على ذلك، فقد كانت كتبه جميعها مهداة إلى أحد الأمراء أو الوزراء، مثل أبو عبد العارض، أو الوزير المهلبي. كذلك حفلت كتب التوحيدي بذكر مجالس هؤلاء الأمراء، وذكر من كانوا من رواد تلك المجالس. فقد أشار إلى مجلس الصاحب ابن عباد، ومجلس أبي الفتح ابن العميد، ومجلس الوزير المهلبي، ومجلس أبي عبد الله العارض الذي جمع مضمونه بعد ذلك في كتابه **"الإمتاع والمؤانسة"**. وقد كانت تلك المراكز الثقافية منتشرة بصورة كبيرة، فمجلس الحمدانيين في حلب وكان

[١] أبو حيان التوحيدي – د.أحمد محمد الحوفي- دار نهضة مصر-د.ت- ١٦